

دور الأخلاق فى تغيير الواقع المعاصر من خلال فكر الإمام النورسى

بحث منشور ضمن أعمال

المؤتمر العالمى السابع لفكر بديع الزمان النورسى

(ممارسة حياة إيمانية فاعلة فى سلام ووثام فى عالم متعدد الثقافات من خلال رسائل النور)

(استانبول للفترة من ٢٠٠٤/٩/٢٦ إلى ٢٠٠٤/٩/٢٨ م)

الدكتور

عبد العظيم أحمد عبد العظيم

جامعة الإسكندرية

مصر

توطئة

إن الله يبعث على رأس كل قرن لهذه الأمة من يجدد لها دينها؛ وقد شهد القاصي والداني للإمام النورسي .رحمة الله . بالإخلاص لدين الله وربطه بين التراث والحياة المعاصرة، ومما لفت انتباهه في الحياة المعاصرة فساد أخلاقها، فشرع يفند أسباب هذا الفساد وكيفية وضع العلاج الناجع له من خلال تراث الإسلام. ومن ثم فإن الأخلاق في كليات رسائل النور هي جوهر العمل الديني عند الإمام. ومن المقاصد الرئيسية في كل مؤلفاته ولذلك تعددت أوصافها ونعوتها، وهي نعوت لم تبتعد عن المفهوم الذي قصده السلف، حيث أنهم كانوا يفصلون الحديث عنها في أبواب (المكارم)، أو (الفضائل)، أو (الآداب)، وقد أثر الإمام النورسي مصطلح (الكليات الخلقية) لأنه جامع ومستغرق للقضايا الخلقية، ومراد الإمام من الحديث عن الأخلاق إلى بعث المسلمين بعثاً قرانياً يستوعب حضارة العصر، لكنه لا يحمل أوزارها وأوساخها. ومن هنا فإن هذا البحث يهدف إلى دراسة الأخلاق عند الإمام النورسي من خلال بحوثه ومصنفاته، وسلوكه وأفعاله. وذلك في أربعة مطالب؛ أولها تعريف الأخلاق، والثاني مصادر الأخلاق عند الإمام النورسي والثالث عن أسباب انهيار الأخلاق ومظاهره وآثاره على المجتمعات، والرابع عن المنهج النوري في الإصلاح.

أولاً.. تعريف الأخلاق:

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: الخُلُقُ والخُلُقُ في الأصل واحد، لكن خص الخُلُقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص [الخُلُقُ] بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. وقال صاحب مختار الصحاح: والخُلُقُ بسكون اللام وضماها: السجية. وفلان يتخَلَّقُ بغير خلقه: أي يتكلفه، فالأخلاق في اللغة تعني التصرفات الإنسانية الصادرة عن أوصاف النفس وسجاياها الباطنة. وفي الحديث: "ليس شيء في الميزان أثقل من حُسن الخُلُقِ"، ونظرية الأخلاق مسطورة في كل كتب الفلاسفة والحكماء، ولكنها ليست كمنظريّة الإسلام، كما أن حديث الحكماء عنها ليس كحديث الإمام.

أ. الأخلاق في المدارس الفلسفية:

وتتسم المذاهب الأخلاقية غير الإسلامية بالجزئية، إذ يأخذ بعضها بمبدأ الأخلاق الطبيعية، ويقتصر بعضها الآخر على مبدأ الأخلاق العلمية، بينما يدعوا آخرون إلى الأخلاق الواقعية أو الأخلاق العلمانية. وكل نظرية أخلاقية اعتمدت مفهوماً واحداً. فنظرية أريستيب وأبيقور تقوم على اللذة، ونظرية سقراط وأفلاطون تقوم على السعادة، ونظرية نيتشه أساسها القوة، ونظرية إيمانويل كانط تقوم على الواجب، ونظرية بنتام وجون استيوارت مل تقوم على المنفعة،

وقد تحدث أفلاطون عن (المدينة الفاضلة)؛ ورغم مثاليته التي يصبو إليها إلا أنه لجأ إلى ما يسمى (الكذب الضروري). حيث أنه لم يجد حرجاً في لجوء الحكام والفلاسفة أحياناً إلى الكذب وخداع

المواطنين من الطبقة الدنيئة، بينما لا يجوز لهؤلاء المواطنين أن يخدموا الحكام. ويكون ذلك الكذب ضروري لأن المعدن الذي خلقت منه كل طبقة مختلف عن المعدن الذي خلقت منه الأخرى^٢! وهكذا فغاية الأخلاق الأفلاطونية تمجيد (الأنأ) للحكام والفلاسفة والنبلأ. وبعء أفلاطون تطورت الأخلاق إلى مذهب نفعي في صورة مادية محضة كما هو الحال فى الليبيرالية أو الماركسية، كما أثبتته مؤرخ الفلسفة الغربية الفيلسوف الإنجليزى (برتراند راسل)^٣،

وقء حصر فلاسفة الإسلام وحكماؤه أصول مكارم الأخلاق فى (الحكمة والشجاعة والعفة والعدل و الصبر)، وهى تتولد . حسب تصورهم . من ثلاثة قوى: (القوى الفكرية، والقوى الغضبية والقوى الشهوية)^٤ وءءء الحافظ ابن حجر الكليات الخلقية فى خمسة أصول استنبطها من حديث خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قالت: (كلا والله ما يخزيك الله أبءا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق"^٥

ب . التعريف النورى للأخلاق:

وفى اصطلاح بءيع الزمان النورسى؛ فالأخلاق هى: [نظام القرآن الذى يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهءة؛ لاكتساب معناها الكونى]. ومن ثم فإن المنظومة الأخلاقية التى وضع أسسها النورسى، تستوحى الأخلاق القرآنية والأخلاق المحمءية جميعها، ولذلك فهى تتسم بالعموم والكلية والشمول، فقد شملت علاقة الإنسان بخالقه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقة الإنسان بكل عناصر الكون ومكوناته.. ويرى الإمام أن [الأخلاق عزة لأن من أراد العبوءية الخالصة لرب العالمين لا ينبغي له أن يذل نفسه فىكون عبءاً للعبءء. وحيث أن كل إنسان راع فى ملكه وعالمه فهو مأمور بالتخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وإحياء سنته الشريفة]^٦ كما أن [الإفراط والتفريط فى الأخلاق يفسءان الاستعدادات والمواهب. وهذا الإفساء ينتج العبئية، وهذه العبئية مناقضة للحكمة الإلهية المهيمنة برعاية المصالح والحكم حتى على أصغر شئ فى العالم]^٧.

إن كثيرا من الأحكام الدينية، والتشريعات القرآنية، التى ءأب بعض الكتاب على تصنيفها خارج مفهوم الأخلاق، جعلها الإمام من صميم الأخلاق، وأصولها. ومن هذا الفهم الشامل للأخلاق ءءء الإمام عن الصدق والشورى والعدل والتعاون والأخوة والأمل والتواضع والاجتهاء والوفاء والعفة والمحبة والشكر وغيرها، بل إنه خصص لبعضها رسائل مستقلة، كما نبه على خطورة الأخلاق الذميمة مثل الكذب والرياء والنفاق والظلم والتفرق والتعصب والتكبر والأنانية واليأس والاستبءاء والتكاسل والعداوة والشر والخيانة. ويستءل على صدق ما وصل إليه بحضارة الإسلام فىقول: [أما المءنية التى بنيت على أساس التشريع الإسلامى والأخلاق المحمءية الرفيعة، فإنها مبنية على الحق والفضيلة والرابطة الدينية والتعاون والهدى، وهذا ما يؤءى إلى العدالة والتوازن والموءة والأخوة والمسالمة والاتءاء وترقى الإنسان]^٨ وهذا هو سر التزام الناس بالقانون التشريعى الإسلامى حيث عمقه الخلقى الرفيع.

ويرى الإمام أن الأخلاق نسبية في درجة تطبيقها من موقف لآخر ومن شخص لآخر، إذ يقول: "إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير، أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتتباين كلما نزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت مكانا بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة. فمثلا: الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا: إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذلا. ومثلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار، بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر، ولينه دليل على التواضع"^٩

وقد عنى الإمام في نظريته الأخلاقية بالصدق واعتبره أساس الإسلام، والرابط لكل الكمالات.. وهو الحياة للأخلاق العالية [وهو الذي يُسرّع بنوع البشر في طريق الترقى - كالبرق - إلى كعبة الكمالات.. وهو الذي يصير أخص الناس وأفقره أعزّ من السلاطين.. وبه تفوق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام على جميع الناس.. وبه ارتفع "سيدنا محمد الهاشمي" عليه الصلاة والسلام إلى أعلى عليين مراتب البشر^{١٠}] و[الصدق هو أس أساس الإسلام، أساس عظيم وجوهر ساطع، وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية. فعلينا إذا أن نحبي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية^{١١}] وإذا كان الصدق أس الإسلام فإن من لا يتبع الإسلام يختل بنيران الصدق عنده؛ ومن ثم يقول الإمام: [إن الكفر بجميع أنواعه كذب. والإيمان إنما هو صدق^{١٢}]. ويقول أيضا: [أما الكذب فلا يسمح به قطعا^{١٣}] [إن الأخلاق العالية إنما تتصل بأرض الحقيقة بـ "الجدية" وإن إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هي بـ"الصدق". ومتى ما انقطعت عرى الصدق والجدية منها صارت كهشيم تذروه الرياح.^{١٤}]

[ولما كان الصدق إيمانا والكذب كفرا، أي كانا متضادين ومتناقضين تباعدا وتدافعا: 'وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب بُعد ما بين المشرق والمغرب. ولا ينبغي أن يختلط الصدق والكذب اختلاط النور والنار، إن الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر بعد الكفر عن الإيمان، ولكن لما ابتعد الناس عن الفطرة والأخلاق الحميدة، اختلط الصدق والكذب، وأعطت الدعايات السياسية رواجاً كبيراً للكذب وأفسحت له المجال فبرز في الميدان، ووجدنا من ينظر للكذب ويعتبره ظاهرة لغوية ونصية، أي ظاهرة طبيعية^{١٥}]

ثانياً. مصادر الأخلاق عند النورسي:

يقول الإمام: "إن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين، ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين، أما مسلكتنا فهو التخلق بالأخلاق المحمدية صلى الله عليه وسلم وإحياء السنة النبوية، ومرشدنا في الحياة: الشريعة الغراء، وإذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان، فإن دور الدين يتمثل في

تثبيت هذه الفطرة وتكملها وتهذيبها^{١٦}. من خلال هذا النص يتبين لنا أن مصادر الأخلاق عند الإمام تتمثل في:

أ - الفطرة:

الفطرة هي طبيعة الكائن التي تصاحبه منذ نشأته، وهي التي لم تستمد من التجربة، قال تعالى: "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" ويذهب الإمام إلى أن الأخلاق فطرية في الإنسان أي أنها مركوزة في بنيته وخلقته، وأنها مقوم أساسي من مقومات ذاتيته وهويته.

إن الإنسان مفطور على التدين والخير والصدق والسعي نحو الكمال، وكل الأخلاق الحميدة، فالأخلاق الحميدة هي القاعدة، والأخلاق الرديئة المذمومة هي الاستثناء، والأخلاق الأولى هي غاية في حد ذاتها وهي السائدة الغالبة في نظام الكون ونظام الكائنات، أما الأخلاق الفاسدة، وإن كانت مركوزة هي الأخرى في الفطرة، فهي جزئية وثانوية، ووجودها إنما كان بقصد التعرف على تجليات الحق والخير والجمال والكمال، وقديماً قيل: "بضدها تتبين الأشياء". والدليل على فطرية الأخلاق أن كلمتي الخلق والخلق في اللغة العربية مشتقتان من مادة لغوية واحدة، أي أنهما تنتميان إلى نفس الجذر اللغوي "خ.ل.ق".

ب - القرآن:

إن تصور الإمام للمعنى المستنبط من القرآن قائم على أن القرآن . كل القرآن . إنما جاء لبناء الأخلاق، وذلك هو منطوق حديث عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت في حديثها الذي يرويه مسلم في صحيحه: (كان خلقه القرآن) ومن ثم فإن رسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعا قائما على أساس الأخلاق، بمعنى كلي. فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية، والاجتماعية، والوجودية، مع سائر الكائنات؛ إنما هي أخلاق. لذلك فإن تصور الأخلاق على أنها (فضيلة) أو (نافلة) هو مفهوم جزئي. والافتقار عليه يؤدي إلى تحريف الدلالة القرآنية، ذات البعد الشمولي العميق لمصطلح (أخلاق). فالقرآن نظام رباني، أنزله الله لتنظيم حياة الإنسان. ولذلك بيّن الإمام أن أخلاق القرآن قد وسعت كل ما جاءت به الكتب السماوية السابقة وزيادة. قال رحمه الله: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً، وقد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدق شؤون الحياة^{١٧})

ج - الرسول:

إن القارئ المدقق لكليات النور يرى من خلالها حبا خالصا للنبي وسنته؛ وأن الرسائل قد كتبت بمداد الحب النبوي؛ فهي سهلة الوصول إلى شغاف القلوب. ومن ثم يقول الإمام في ثانياها: "إن آثار محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته المباركة وتاريخ حياته تشهد أنه قد اجتمعت فيه الخصال العالية

كافة. ومن شأن امتزاج كثرة من تلك الأخلاق توليد عزة النفس، التي تولد شرفاً ووقاراً يترفعان عن سفساف الأمور، كترفع الملائكة وتنزههم عن الاختلاط بالشياطين، فالأخلاق السامية كذلك لا تسمح أصلاً بتداخل الحيلة والكذب بينها، بل تنتزه وتتبرأ وترفع عنها، بحكمة التضاد فيما بينها^١ ومن ثم فإن "الزمان الماضي والزمان الحاضر - أي عصر السعادة النبوية - والمستقبل يتضمنان براهين نيرة على النبوة، ويرددان بلسان واحد برهان ذاته صلى الله عليه وسلم بأنه معدن الأخلاق العالية وداعي الصدق ودلال النبوة"^٢. وكيف لا وهو القائل: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق^٣) ولكن محبة المسلمين لنبيهم لا تكتمل إلا باتباع سنته، إذ أن مقياس اتباع السنة رهين بدرجة التخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً. فساد الأخلاق:

يعيب الإمام على من يعمدون إلى الفصل بين الأخلاق والحضارة؛ فيقول: [لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت هيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب^٤] أما [الأعمال اللاأخلاقية الدنيئة والخسيسة التي تحملها حضارة العصر لا قيمة لها فهذا انتصار وقتي لا قيمة له ولا أهمية له أمام بشري قوله تعالى "والعاقبة للمتقين"^٥]

أ. أسباب انهيار الأخلاق:

ويرجع الإمام فساد الأخلاق في هذا الزمان وغيره من الأزمنة لعدة أسباب منها ما يلي:

١. الفقر والجهل:

يوضح الإمام العلاقة بين الفقر وسوء الأخلاق فيقول: "لأن السعي والعمل لا يكفيان لمواجهة المصاريف المتزايدة؛ انساق الإنسان إلى مزاولة الخداع والحيلة وأكل الحرام. وهكذا فسد أساس الأخلاق. وبينما تعطي هذه المدنية للجماعة والنوع ثروة وغنى وبهجة إذا بها تجعل الفرد فقيراً محتاجاً، فاسد الأخلاق."^٦ ويرى الإمام أن هذا السبب من السهل تداركه والقضاء عيه وذلك باتباع منهج الاقتصاد الإسلامي، ففي "وجوب الزكاة" و"حرمة الربا" حكمة عظيمة، ومصالحة عالية، ورحمة واسعة؛ إذ لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظراً تاريخياً وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أسس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط: إحداهما: "إن شَبِعْتُ فلا عليَّ أن يموتَ غيري من الجُوع". والثانية: "اِكْتَسَبْتُ أَنْتَ لَأَكُلَ أَنَا. وَاَتَعَبْتُ أَنْتَ لَأَسْتَرِيحَ أَنَا".

أما عن العلاقة بين الجهل وسوء الأخلاق فيقول: "إن أعداءنا ليسوا هم الأجنب بل إن عدونا هو الجهل وما تولد منه من منع إعلاء كلمة الله وما نتج عنه من مخالفة الشريعة. ثم البؤس وثمرته سوء الأخلاق وسوء التصرفات، والخلاف وما يتولد عنه من الحقد والنفاق"^{٢٤}

وهو في هذه وتلك يحذر من آفة التقليد فيقول: "إن أحوالي وأخلاقي مخالفة للناس، كما هو الحال في ملابسي. فاتخذوا الأمر الواقع والحق محل النظر وموضع الاعتبار. ولا تتخذوا ما روجه الزمان أو العادات من أخلاق سيئة بتقليد الناس بعضهم بعضاً مقياساً لوزن الأمور"^{٢٥}. ويحذر الإمام أشد التحذير من تقليد المستعمرين وأعداء الملة فيقول: إن (الإنكليز) كالشيطان الرجيم يثير أحاسيس الإنسان الخبيثة ويشجع الأخلاق الرذيلة في حين يطفئ جذوة المشاعر النبيلة"^{٢٦}.

٢ . الإعلام:

لا ينكر الإمام فضل الإعلام في نشر رسالة الإسلام، بل إنه يعد من أخطر وسائل الدعوة، ولكن الإمام يحذر من الإعلام الذي ليس له غاية ولا هدف بل هو إعلام عبثي فيقول: "لقد دأبت الصحف على زعزعة الأخلاق الإسلامية، حتى اهلكوا الأفكار العامة السائدة. فتصدت لهم بمقالات نشرتها في الجرائد"^{٢٧}، فبالإعلام غير الرشيد انفتحت الشعوب على ثقافات غيرها ففتحت الباب أمام الثقافة الغربية الرخيصة "التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة"^{٢٨} ونشطت الصحافة في نشر الابتذال في الأخلاق والاستهزاء بالدين، فانتشرت كتب الإلحاد وحلت محل كلمات (الله، الرب، الخالق، الإسلام) كلمات (الطبيعة، التطور، القومية التركية.. الخ)^{٢٩}

٣ . المدارس الفلسفية الفاسدة:

ولا ينكر الإمام الفلسفة التي تدعو إلى الحكمة ومعرفة الحق والخير والجمال، ولكنه ينكر الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد إذ يقول: "الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية وتمهد للرقى الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك، وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة، فإنها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة وتعارض الحقائق القرآنية"^{٣٠}.

ب . مظاهر انهيار الأخلاق:

إن التقدم المادي والازدهار المعاشي، من شأنهما أن يزيجا بالإنسان في حالة من الترف والاستكبار والاعتداد بالقوة والتكبر لموازين الحق.. وهذا هو مصداق قول الله عز وجل: "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" ومن ثم فإن المجتمع الإنساني مدعور بل مضطر إلى أن يجدد نفسه دائماً، كي لا يقع في آفة التراجع إلى الاستبداد والطغيان من جراء تألق الحياة المادية وازدهار أسباب المعيشة، وبخاصة أن حضارة اليوم تعتمد على تسييد القوة بمفهومها الشامل، وتسعى لصياغة منظومة قيمية

شمولية تقوم على مبادئ وأخلاقيات الليبرالية الجديدة التي تبشر بأبدية الرأسمالية الأمريكية الأوروبية، وانغلاق جميع السبل المناهضة لها.

ومن مخاطر تلك الحضارة تغير النسق القيمي من جهة؛ وفقد الهوية من جهة أخرى، فقد عمل الأمريكان واليهود على تفكيك البنيات الاجتماعية والبنيات الأخلاقية للشعوب فضلا عن ذلك نصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق الإنسان بتشجيع الأقليات داخل الشعوب والدفاع عنها لتفكيك البنيات الاجتماعية للأمم والهدف هو القضاء على الخصوصيات الشعبية في العالم والوصول إلى إنسان لا انتماء له، لا مرجعية له؛ وإنما إنسان قابل لأن يكون مستهلكا. وقد نجحوا في تجنيد من يرونه أهلا لتنفيذ مخططاتهم، وممن [حملوا لواءهم: تكين آلب (يهودي) و ضياء كوك آلب الذي تتلمذ على العالم الاجتماعي الاسرائيلي (دور كيم) وإن لم يحضر دروسه في فرنسا، و أحمد آغايف ويوسف أقجورة، ممن هيأتهم المخابرات الروسية و أرسلوا إلى تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد. ٣١].

وقد أكد الإمام أن [الأعمال للأخلاقية الدنيئة والخسيسة التي تحملها حضارة العصر لا قيمة لها؛ فهذا انتصار وقتي لا قيمة له ولا أهمية له أمام بشرى قوله تعالى "والعاقبة للمتقين" ٣٢] وقد نوه الإمام بأساس الحضارة اللاديني، وبأنها عجنت الثورة على الدين، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وبالتالي فهي عاكفة على عبادة آلهة المادة، وتؤسس في كل يوم لها معبدا جديدا. وهي رغم كل المفاسد لا تريد أن تحيد عن نهجها، مع كل ما عانتها من حروب عالمية وأمراض اجتماعية وأخلاقية مستعصية!!.

وينعى الإمام تلك الحضارة في هذا الشق اللاديني للأخلاقى – قائلا لها وللمفتونين بها: [يا أوروبا الثانية (!!)] اعلمى جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفهية ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شئت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون ٣٣].

ومن مظاهر انهيار الأخلاق "الكذب" [وما الكذب إلا افتراء على القدرة الإلهية، وضد للحكمة الربانية.. وهو الذي خرب الأخلاق العالية.. وهو الذي صير التشبثات العظيمة كالشبهات المنتنة.. وبه انتشر السم في الإسلام.. وبه اختلت أحوال نوع البشر.. وهو الذي قيد العالم الإنساني عن كمالاته، وأوقفه عن ترقياته.. وبه وقع أمثال "مسيلمة الكذاب" في أسفل سافلي الخسة.. وهو الحمل الثقيل على ظهر الإنسان فيعوقه عن مقصوده.. وهو الأب للرياء والأم للتصنع.. فل هذه الأسباب أختص بالتلعين والتهديد والنعي النازل من فوق العرش ٣٤].

ج - آثار فساد الأخلاق:

إن المدنية الغربية بنيت على أساس الأخلاق الذميمة، ولذا فإنها لا تكفل سعادة البشرية. إنها بنيت على خمسة مبادئ سلبية:

. مبنية على القوة: وهذا يؤدي إلى الاعتداء والظلم.

. هدفها وقصدها المنفعة: وهذا من شأنه التدافع والتزاحم.

- دستورها في الحياة هو الجدل: وهذا يؤدي إلى التنازع والخصام.

- رابطتها بين الكتل هي العنصرية والقومية السلبية: وهذا يؤدي إلى تصادم رهيب.

. خدمتها الجذابة هي تطمين وتشجيع الهوى والهوس: وهذا يمسح الإنسان روحياً.

إن من أخطر أخلاق الحضارة الغربية "الحرص والأنانية"، ومن ثم يحذر الإمام من خطرهما إذا ما تأصلت وكان لها تأثيراتها فيقول: [الحرص أضّر على الحياة الإنسانية وأدهى] و[الحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان، وداء وبيل ومهانة وذلة، وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة. والحرص يظهر تأثيره السيئ بدءاً من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاءً إلى أصغر فرد فيه^{٣٥}]. و[الذي تمكّن فيه الحرص والأنانية، يصبح إنساناً يريد القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع^{٣٦}] ونتج عن هذا أن حضارة اليوم [تتسم بالدمار الأخلاقي والروحي وبيّارة هوى النفس الأمارة وبإطلاق الشهوات من عقالها^{٣٧}] [وبهذا الأسلوب أحاطت الحضارة الغربية المجتمعات البشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يد صانعيها وحمايتها ثروة الناس؛ فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق^{٣٨}]

ولا يلقي الإمام باللائمة على صناع الحضارة الغربية فقط بل إنه يتهم المسلمين كذلك في تنكبهم طريق الأخلاق وأن ابتعادهم عن طريق الجادة والإيمان لا يقل خطراً عن مهاوى الحضارة المزعومة؛ إذ يقول: [والمانع السادس والسابع لعدم سيادة المسلمين الآن تفشي روح الاستبداد فينا. وانتشار الأخلاق الذميمة النابعة من مجافاة الشريعة ومخالفتها^{٣٩}].

رابعاً . النموذج النوري للإصلاح:

قبل أن يضع الإمام منهجاً للإصلاح عمد إلى إصلاح نفسه أولاً، فهدبها، على نهج الأخلاق المحمدية متجاوزاً برازخ النفس والهوى، فبرز في هذا العصر مثلاً فريداً مجسماً لمكارم الأخلاق. فأمضى حياته حاملاً همة عالية واطمئناناً راسخاً وعفة تامة مع نكران ذات صادق تتحير منه العقول. كل ذلك بما وهبه المولى الكريم من صفاء قلب وتوكل كامل وقناعة تامة، فنرى البساطة الكاملة في عيشه وملبسه بل في كل حاله وطوره. حتى لا تراه يحمل ذرة من محبة الدنيا وميل إليها.

ويروى لنا الإمام لقطات من حياته تعبر عن حسن منهجه وصدقته في تطبيقه إذ يقول [وقد كنا في "قوشتورما"، في روسيا، مع تسعين من ضباطنا الأسرى في ردهة واحدة، وكنت ألقى عليهم أحياناً الدرس. وذات يوم حضر القائد الروسي وشاهد الموقف وقال: إن هذا الكردي قائد المتطوعين قد ذبح كثيراً من جنودنا، ويأتي الآن ويلقى دروساً سياسية هنا، لا يمكن هذا، امنعه قطعاً. ولكن بعد يومين قال: يبدو أن دروسكم غير سياسية، بل دينية وأخلاقية. استمر عليها؛ فسمح بإلقاء الدرس^{٤٠}] [أما الشباب الذين كانوا يتناوبون عليه أحياناً فكان يوصيهم بقراءة رسائل النور والحذر من مهالك ضياع الأخلاق في هذا العصر ولزوم أداء الصلوات. وبفضل الله فقد صحا الكثيرون من رقدهم^{٤١}]

[وكان الفدائيون الأرمن يذبحون أطفال المسلمين في عدد من المناطق وكان المسلمون يقابلونهم بالمثل في ذبح أطفال الأرمن. ولكن ما إن جُمع ألوف من أطفال الأرمن في المنطقة التي كانت تحت إمرة بديع الزمان حتى أمر الجنود: لا تتعرضوا لهؤلاء الأطفال بشئ. ثم أطلق سراحهم جميعاً دون أن يمس أحدهم بسوء. فعادوا إلى عوائلهم التي كانت خلف الخطوط الروسية. هذا السلوك كان درساً قيماً وعبرة للأرمن مما دفعهم إلى الإعجاب بأخلاق المسلمين^{٢٤}]

أ. اتباع الحنيفية السمحاء:

يرى الإمام أن الغلبة ستكون للإسلام كما تنبه إلى ذلك بسمارك الذي يعتبر من أشهر رجال الفكر في تاريخ أوروبا الحديث وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر، فالحقيقة التي لا غبار عليها أن الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو حقيقة الإسلام، [فلو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام^{٢٥}]

أما عن الدعوة إلى الإسلام وأخلاقه فيرى الإمام أن تكون حسب نهج الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة [إذ أن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه. ويأظهار الإسلام محبوباً وسامياً لديهم وذلك بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة. أما الإكراه والعداء، فهما تجاه وحشية الهمجيين^{٢٦}]. ولقد أثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس الإيمان هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل في أيديهم ميزان الحق والعدل. وانكشف بسبب وجودهم ونقاء أخلاقهم: أساليب الوضاعة، والخيانة، والغدر. ومن ثم يوجه النورسي دعوة إلى علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق ليروا الفرق الهائل بين أخلاقيات الشريعة المعتمدة على الإيمان وأخلاقيات المدنية الحديثة، مدنية أوروبا، فيقرر أنّ مبدأ الإيمان أساس ترتكز عليه كليات الأخلاق،

ب. خذ ما صفا.. دع ما كدر:

[ما ينبغي أن ننخدع، بل نجعل القاعدة الآتية دستور عمل لنا وهي: خذ ما صفا دع ما كدر وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب - مشكورين - كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات. أما العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيراً لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة^{٢٧}].

ج. إصلاح الفرد:

لما كان الإنسان هو مصدر الخير والشر جميعاً؛ فإن الإمام يرى وجوب إصلاح أخلاق آحاد الناس قبل الحديث عن إصلاح المجتمع، [فالإنسان هو منبع الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاح أنانيته التي هي مصدر لمصائب ومعاصي كثيرة، أشنعها وأكثرها سوءاً المصيبة الدينية، والتي تتمثل في الكفر سبب كل الشرور^{٢٨}] والسبيل الوحيد إلى تجدد نفس الإنسان أن يشدّ نفسه دائماً إلى وصايا القرآن وأوامره وعظاته. وعندئذ يظل المجتمع الإنساني صاعداً في طريقين من التقدم: طريق

التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنعة والقوة، وطريق التقدم على سلم الأخلاق أو القيم الإنسانية الرفيعة، التي لا تعرف التفاتاً إلى الوراء، ولا تتجه إلا صعوداً نحو الجدة وفتوة المجتمع الإنساني.

وأخطر ما في الإنسان من مساوئ "الأنانية" وقد فطن الإمام إلى ذلك فقال [لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظراً تاريخياً وتأمّلت في مساوي جمعية البشر لرأيت أس أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط: إحداهما: (إن شبتت فلا علي أن يموت غيري من الجوع) والثانية: (اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا) والدواء لهاتين الخصلتين الفاسدتين هو الزكاة وحرمة الربا^{٤٧}].

د . إصلاح الحكم:

لقد جاء في الأثر أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ومن ثم رأى الإمام أن إصلاح السلاطين من ركائز إصلاح الأخلاق في المجتمع، حيث أن نسبة الأخلاق والعبادة وأمور الآخرة والفضيلة في الشريعة هي تسع وتسعون بالمائة بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحدة بالمائة. ورغم ذلك فإن السياسة الفاسدة قد تضيع الشريعة كلها، [فالسياسة المبنية على المنافع وحش رهيب^{٤٨}] أما السياسة في الإسلام مرتبطة بالعقيدة، وبالأخلاق وبالقيم التي تنادى بها هذه العقيدة، ويلفت الإمام نظر الساسة إلى المعنى الصحيح للحرية فيقول: [يا أبناء الوطن! لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق، الفاسد؛ في إناء آخر! ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها، والتخلق بالأخلاق الفاضلة^{٤٩}] [إن صدى الحرية والعدالة ينفخ نفخ اسرافيل فيبعث الحياة في مشاعرنا المدنية وآماننا الخادمة ورغباتنا القومية الرفيعة وأخلاقنا الإسلامية الحميدة، حتى يرن صماخ الكرة الأرضية المجذوبة جذبة المولوي، ويهيج الأمة جميعاً ويهزها هزّ المجذوب^{٥٠}]

* مصادر الدراسة:

- ١ - ابن حجر "أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي" (٧٧٣ . ٨٥٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ . (٢٢/١)
- ٢ - إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان النورسي.. نظرة عامة عن حياته وآثاره، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩ .
- ٣ - أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، المجلس الأعلى للثئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠م .
- ٤ - بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، بغداد، دار الانبار، ط١، ١٩٨٩ .
- ٥ - بديع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الأحمديّة للنشر، البيضاء ٢٠٠١ .

- ٦ - بديع الزمان سعيد النورسي، *السيرة ذاتية*، إعداد ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، ١٩٩٨ هـ.
- ٧ - بديع الزمان سعيد النورسي، *الشعاعات*، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، ١٩٩٤ .
- ٨ - بديع الزمان سعيد النورسي، *الكلمات*، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- ٩ - بديع الزمان سعيد النورسي، *اللمعات*، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- ١٠ - بديع الزمان سعيد النورسي، *المكتوبات*، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- ١١ - بديع الزمان سعيد النورسي، *صيقل الإسلام*، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، استانبول.
- ١٢ - بديع الزمان سعيد النورسي، *مرشد أهل القرآن*، ترجمة إحسان قاسم، سوزلر للنشر، ١٩٩٨.
- ١٣ - خليل زياد الدغامين، *إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي*، ط١، دار النيل، أزمير، ١٩٩٨
- ١٤ - سعيد محمد القرني، *المنهج التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي*، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٩٩٨
- ١٥ - محسن عبد الحميد، *النورسي متكلم العصر الحديث*، سوزلر للنشر، القاهرة، ١٩٩٥.
- ١٦ - محمد التهامي، *النورسي أنوار لا تغيب*، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨ م.
- ١٧ - محمد زاهد الملازكردي، *عجالة مقتطفة من أقلام أفاضل العلماء والدكاترة في حياة الإمام الجليل بديع الزمان سعيد النورسي*، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.
- ١٨ - هنري كوربان، *تاريخ الفلسفة الإسلامية*، ترجمة: نصير مروة وحسن قبسي. بيروت ١٩٦٦ م
- ١٩ - ويل ديورانت، *قصة الفلسفة من أفلاطون (٤٢٨ . ٣٤٧ ق.م) إلى جون ديوي (١٨٥٩ . ١٩٥٢م)*، ترجمة: د. فتح الله محمد المشعشع، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٢.
-
- ١ رواه أحمد عن أبي الدرداء، مرفوعاً. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٥٣٩٠.
- ٢ ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ص ١٤٤.
- ٣ المرجع السابق، ص ٢١٥.
- ٤ هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٩٩.
- ٥ طرف من حديث طويل أخرجه البخاري من حديث عائشة في كتاب بدء الوحي، انظر: ابن حجر، الفتح، (٢٢/١)
- ٦ بديع الزمان سعيد النورسي "السيرة الذاتية"، ص ١٠٢
- ٧ بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، "محاکمات - ص: ١٤٠"
- ٨ بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، ص: ٦٠٦-٦٠٧.
- ٩ صيقل الإسلام، مرجع سابق، السانحات، ص: ٣٣٣.
- ١٠ بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص ٩٧.

- ١١ صيقل الإسلام، مرجع سابق، ٥٠٦
- ١٢ بديع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ص : ٤٦.
- ١٣ المصدر السابق، ص : ٥٠.
- ١٤ صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: ١٤٣
- ١٥ الخطبة الشامية، ص : ٤٦-٤٨
- ١٦ المرجع السابق، ص : ٨٥.
- ١٧ إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص ٢٨٥.
- ١٨ صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: ١٤٣
- ١٩ نفس المرجع، ص: ١٤٢
- ٢٠ رواه الحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٢٣٤٩
- ٢١ الخطبة الشامية، ص : ٣٨.
- ٢٢ بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ص: ٣٧٠.
- ٢٣ السيرة الذاتية، ص ١٤٠.
- ٢٤ نفس المرجع، ٩٨.
- ٢٥ نفس المرجع، ٧٠.
- ٢٦ صيقل الإسلام/محاكمات - ص: ١١٧
- ٢٧ السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ١٠٠
- ٢٨ الكلمات، مرجع سابق، ص: ٨٥٥.
- ٢٩ السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٢١٧.
- ٣٠ الكلمات، مرجع سابق، ص ٥٠٨، ٥١٢.
- ٣١ السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٢١٧.
- ٣٢ الكلمات، مرجع سابق، ص: ٣٧٠.
- ٣٣ المكتوبات، مرجع سابق، ص ٢١٥
- ٣٤ إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص: ٩٧
- ٣٥ بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات، ص ٣١٥
- ٣٦ نفس المصدر، ص ٣١٦.
- ٣٧ بديع الزمان سعيد النورسي، مرشد أهل القرآن، ص ١٦٦.
- ٣٨ الكلمات، مرجع سابق، ص: ٨٥٦.
- ٣٩ صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: ٤٩٦
- ٤٠ بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ص ٥٧٤
- ٤١ السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٥١٥
- ٤٢ نفس المرجع، ص ١٠٦
- ٤٣ صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: ٤٩٤.
- ٤٤ السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٩٨.
- ٤٥ نفس المرجع، ص ٨٦
- ٤٦ المكتوبات، مرجع سابق، ص ١٠٧
- ٤٧ إشارات الإعجاز، مرجع سابق ص : ٦٧-٦٨.

^{٤٨} الخطبة الشامية، مرجع سابق ص : ١٠٣

^{٤٩} صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٦٧

^{٥٠} السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٨٢

—————
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات
—————